يلتقطه بعض السيارة

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

انتهت الحلقة السابقة عند قوله تعالى: {قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين}.

فهذا الأخ يعارض فكرة قتل يوسف، لكنه، كما يبدو، يرى الشرر يتطاير من عيون بعض إخوته، ويحس بتصميمهم على الخلاص من يوسف، فيكمل كلامه: إن كنتم ولا بد فاعلين شيئاً للخلاص منه، فدونكم الجب على طريق القوافل نضعه في غيابته؛ فلا يصاب بأذى، ولا يقدر على الخروج، ثم لا تلبث أن تمر قافلة سيارة تلتمس الماء فيأخذوه بعيداً عنا، وهذا الرأي بالنسبة إليه أهون الشرور.

وما أن عاد الإخوة مساء ذاك اليوم حتى (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون).

لقد جاؤوا أباهم بطريقة هجومية حتى يضطر لإرسال يوسف معهم، تحت ضغط رد الاتهام عن نفسه، ومع ذلك فإن خبيئة نفوسهم تظهر في ثنايا كلامهم، (مالك لا تأمنا على يوسف)، وكأنهم يقولون: لسنا أهلاً لأن تأمننا على يوسف، ولم تفلح المؤكدات اللفظية التي استخدموها في إخفائها بل عززتها، وقد صدق فيهم المثل السائر: يكاد المريب أن يقول خذوني.

ويظهر أنهم كانوا في عجلة من أمرهم، ولذلك أرادوا أخذ يوسف (غداً)، وكأنهم أدركوا، أو أدرك شيطانهم، أن الزمن ليس في صالحهم، فإذا كانوا قد تنازلوا وهم في تلك الحالة من الغيظ، في مجلس واحد، من القتل إلى الطرح إلى الإلقاء في غيابة الجب، فهذا يعني أن ثورة نفوسهم سرعان ما تهدأ، وأن سَوْرة غضبهم توشك أن تخمد.

وقولهم (أرسله معنا يرتع ويلعب)، لأن من أكثر ما يسر الوالد أن يرى صغاره يأكلون ويلعبون، لكن يعقوب يرد عليهم بأن ذهابهم بيوسف يحزنه، فضلاً عن أن يوسف صغير وضعيف ولا يقدر على الدفاع عن نفسه لو هاجمه الذئب، كي يتراجعوا عن طلبهم.

وتعريف كلمة الذئب إما للإشارة إلى ذئب معهود معروف بخطره في منطقتهم، أو المقصود جنس الذئاب الكثيرة حولهم.

وقد كان جوابهم على تخوف أبيهم من خطر الذئب، أن (قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون)، ولم يأبهوا بأن غيابه عنه يحزنه، وقد حاولوا طمأنته بأنهم عصبة، وسيكونون خاسرين ولا قيمة لهم إن أكله الذئب وحوله أولئك العصبة، والغريب أنهم يخططون للتخلص من يوسف لأنهم عصبة!! لكأنما يأبى الله تعالى إلا أن يظهر الحقيقة على ألسنة المخادعين؛ فمقتضى كونهم عصبة هو أن يحموا أخاهم الصغير، وهو ما قالوه أمام والدهم، بينما العدوان على الصغير الضعيف لكونهم عصبة أمر ضد القيم والأخلاق والأعراف والإنسانية.

ويستجيب يعقوب لطلب أولاده، ربما لئلا تزداد مشاعرهم العدائية ضد يوسف، مع تسليمه الأمر لله رب العالمين، (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)، ظاهر أنهم انفضوا من اجتماع الأمس، دون أن يتفقوا على شيء محدد بشأن يوسف، وأن الحل الوسط الذي يرضي جميع الأطراف كان وضعه في ذلك الجب، وهنا تتدخل العناية الإلهية لطمأنة يوسف، حيث يوحي الله تعالى إليه أنه سينبئهم بفعلتهم تلك وهم لا يشعرون:(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)، وقد جاء في آخر السورة خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)، وظاهر الأمر أن المقصود إجماع الإخوة ومكرهم بيوسف، لكنْ رأى بعض المفسرين أن الآية تشمل القافلة والنسوة وامرأة العزيز وزوجها.

وبالفعل فإنه قد وقع الإجماع ضد يوسف عليه السلام عدة مرات، أولها إجماع إخوته أن يجعلوه في غيابة الجب، والثاني إجماع رجالات القافلة أن يُسروه بضاعة ليبيعوه، ثم إجماع النسوة على مراودته، وأخيراً إجماع العزيز وأشياعه ليسجننه حتى حين، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الذين يعادون أصحاب الدعوات منهم من يفعل ذلك من منطلق الحسد والمنافسة، ومنهم من يدفعه حب المال كرجال القافلة، ومنهم أهل الأهواء والشهوات كالنسوة، والقسم الأخير ذوو المكانة وأهل الرياسة كالعزيز ومن حوله.

إن مخاطبة الرسول بأنه لم يكن شاهداً إجماعهم ومكرهم، شهادة له صلى الله عليه وسلم، أن القرآن ليس من عنده، ولكنه وحي الله إليه، وحيث إن الله سبحانه يخبر نبيه بمكر الماكرين، فهذا إعلام وتذكير له أن مكرهم لم يغب عنه وقد أبطله وأمضى سبحانه أمره، وهو الغالب على أمره، وفي ذلك إشارة تطمينية للرسول صلى الله عليه وسلم، أن ما يمكر به قومه ضده هو أيضاً عند الله تعالى، وإن غاب عنه محمد وصحبه، ولن يكون إلا ما أراد الله تعالى من النصر والتمكين لرسوله ودينه ودعوته.